السلام العـــالمى والاسلام

الأستاذ محمود عبد العزيز محرم

الإسلام حرب والمسلمون متعصبون

هذا هو الجبل الذى شقنا به أنفسنا كثيرا . وشقنا به المستعمرون كثيرا ؛ ولا زلنا كل يوم نجده قريبا من أعناقنا الساعة التى نريد أن ننتقم من أنفسنا فيها أو ينتقم منا فيها غيرنا

الطرب ، فذلك يتمشى مع طابعه ولا يتعارض معه بحال من الأحوال

وقد أداه طبعه السياسى الواضح هذا إلى أن يرسم الخطط للأمور التى يمكن أن تقع بعد عهد طويل .. ولا بأس عليه من أن يخطئ . . خطأ المجتهد ، فى أن ينظم المملكة من بعده على سورة مبايعة طويلة المدى لأولاده ، أو أن يقتل الخارجى ، وهو على وشك الموت ..

ولاشك أن تصرفه فى كسب صداقة شارلمان ، وإهدائه إياه مفاتيح بيت المقدس ، هو من وعى السياسى النابه الذى يريد أن يحول بين مادية الصراع بين الشرق والغرب ، وهو ما امتحنت به المملكة الاسلامية بعد ذلك

وجملة القول فى الرشيد أنه كان من أبرع ساسة الشرق ، وخلفاء الاسلام ، وأنه لم يكن بالمترف اللاهى الناعم كما صوره صاحب الأغانى ، أو كاتب ألف ليلة ، ولكنه كان قاسيا جبارا ، فيه روح المجاهد المحارب ، وعاطفة الشباب الفوار ، الذى لا يحب الهزيمة ، والذى يتعقب خصومه وينتك بهم ، والذى يحب مجالس العلم ، ومجالس الفن ، ويلقاها مرحا مبتسما طلقا ، وإن طوى النفس على عزيمة ماضية تبرز فى قوة حين يتصل الأمر بشخصه أو سلطانه

أنور الجندى

وإذا كان من صالح الدول الغربية الاستعمارية وغيرها ، أن تباعد بيننا وبين ماضينا ومعتقداتنا ، فإنه ليس من صالحنا نحن أن نباعد عنا هذا الماضى وهذه المعتقدات . والأمم الغربية كلها مردت على الإفلات من قبضة الدين حتى ما تستطيع الرجوع إلى حظيرته مرة أخرى ، وهى تريدنا على أن نكون مثلها ، فنخلع عنا هذه الروحانية العالية والتوجيه السامى والإرشاد المنير حتى تجد فينا مرتعا خصبا ، تحقق فيه آمالها ورغائبها ، لأنها تعلم حق العلم ، أن ديننا — هذا الدين الإسلامى الحنيف — يقف دونها ، ويحول بينها وبين ما تبغى ، ولا يكاد يفسح لها طريق الاستغلال والاحتكار والإذلال والاستعمار

وطالما سمت الأمم الغربية إلى هذه الغاية ، والعصور الماضية لا زالت تتراءى لنا فى صفحاتها المليئة بالمظالم والأخبار الحروب الصليبية المتكررة ، والهجمات المتتابعة من الغرب على الشرق فى محاولات كثيرة لتشويه الدين الإسلامى ، وتسفيه العقلية الإسلامية ، والاستيلاء على بلاد الإسلام .

وقد اشتبك الغرب بالشرق — منذ الاسلام — اشتباكات كثيرة ، كتب النصر فى بعضها للشرق ، وكتب النصر فى بعضها للغرب . على أن نصر الشرق كان مرجعه فى كل مرة إلى الاستمساك بعقائده الرفيعة ، ومثله العالية ، ودينه الربانى الحنيف . ويوم انتصر الغرب على الشرق ، كان ذلك بعد أن تخلينا عن ديننا ، وغلبنا على أنفسنا ، وسمينا وراء رغائب الحياة الذليلة ومثلها الهابطة ، نفنى أعمارنا وقوانا ، ونجعل منها سدا منيعا يحرمنا الاسترواح فى ظل رسالتنا ، وطرائقها الحيوية ، وأهدافها

لقد استعمر الغرب بلادنا ، واستولى على مواردنا ، واحتكر مجالات النشاط الاقتصادى ، وساقنا إلى حروب لاشأن لنا بها ! غير أن أعظم ما فعله خطرا ، هو تلك الطائفة « المسلمة ! » التى رباها ونشأها وأعدها لحكم البلاد ، ووقف هو من وراء ستار يملى عليها ويدفعها إلى ما يريد

هذه الطائفة « المسلمة ! » تقتل الاسلام وتقتل المسلمين بأسلوب استعمارى غير مباشر ، بعد أن فرغ الاستعمار من كل

ما يطيق فى هذه السبيل بأسلوبه الباشر ، واخترعوا لنا هؤلاء جميعا فكرتى السلطة الدينية والسلطة الزمنية اللتين اعترفتهما الغرب لتنحسر ظلال الدين من مرافق الحياة ، وحاولوا أن يوهمونا بأن السياسة شىء والدين شىء آخر . وارتفعت أصواتهم المتخاذلة هنا وهناك انتشر فى الشعوب المستكينة هذا المبدأ الخبيث

نحن فى بلادنا ، وقد انطلقت إلينا الدول الغربية من بلادها ، فزقت العالم الإسلامى مزقا ، وعذبت المسلمين فى كل قطر حلت به ، وضربتهم بالذل والفقر والفساد ، وكلما بدت محاولة لارجاعنا إلى مبادئنا الدينية حتى نهج فى الحياة نهجا صحيحا ، أذاع المستعمرون بيننا بلسانهم أو بلسان عملائهم ، أن الاسلام حرب وأن المسلمين متعصبون ، وأنه لا دين مع سياسة ، ولا سياسة مع دين

لذلك نجدنا فى حاجة إلى تصحيح هذه الأوضاع الخاطئة التى جرت عليها السنون أذيالها ، والتى تبدو الآن لكثير من الناس حقيقة لا مفر منها ، فى حاجة إلى فهم ديننا على حقيقته ، والرجوع به إلى مصادره الأولى ، يوم كان سياسة عملية زاكية ، تعمر ولا تخرب ، وتهدى ولا تضل ، وتعدل ولا تظلم ، وتحسن ولا تسىء ، فى حاجة إلى فهم أن ديننا سياسة ، وأن سياستنا دين ، وأن حياتنا فى أنفسنا ومع غيرنا لابد أن تقوم على هذا الأساس . فى حاجة إلى فهم قيمة عقيدتنا فى الحياة ، ومعرفة أسلوبها فى فض مشاكل الناس ومشاكل الأمم ، ودراسة أهدافها ، دراسة موضوعية صحيحة . فى حاجة لأن نفهم هل الإسلام حقيقة دين حرب ! وهل المسلمون بالتالى متعصبون !

فى هذا كله أخرج الأستاذ سيد قطب كتابه الرائع « السلام العالمى والاسلام » وهو من أول سطر فيه يسجل وظيفة العقيدة الدينية « فعمر الانسان محدود ، وأيامه على الأرض محدودة ، وهو — بالقياس إلى هذا الكون الهائل الذى يعيش فيه — ذرة تائهة لا مستقر لها ولا قيمة ، وعمره بالقياس إلى الزمن الهائل من الأزل إلى الأبد ومضة برق أو خمضة عين

ولكن هذا الفرد الفانى . . . يملك فى لحظة أن يتصل بقوة الأزل والأبد ، أن يمتد طولا وعرضا فى ذلك الكون الهائل ، أن يرتبط به فى أعماقه وأمشاجه بوشائج من القربى لاتنفصم ، أن يشعر أنه من تلك القوى الهائلة وإليها ، أنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن ينشئ أحداثا ضخمة ، وأن يؤثر فى كل شىء ويتأثر . . . يملك أن يحس الوجود فى الماضى والاستقرار فى الحاضر ، والامتداد فى الآتى ، يملك أن يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التى لاتنضب ولاتنحسر ولا تضعف ، وإنه لقادر إذن على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء بمثل قوتها ، فما هو بالتائه الضائع ، ولا بالفرد العاجز ، وهو يستند إلى قوة الأزل والأبد وإلى ما بينه وبينها من وشائج

تلك وظيفة العقيدة الدينية ، وذلك أثرها فى النفس والحياة

والعقيدة الاسلامية تنظر إلى الانسان ككل ، دون تفرقة بين سلوكه وأهدافه ونوازعه ودوافعه ، ودون تفرقة بين روحه وعقله وجسده « فهى تشمل كل نشاط الانسان فى كل حقول الحياة ، فلا تقصر مهمتها على حقل دون حقل ، ولا على اتجاه دون اتجاه . إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فما لقيصر ، وقيصر ذاته ، فى العقيدة الاسلامية — كله لله . وما لقيصر حق ليس للفرد من رعاياه ، وإنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده ، أو تتولى شعائره ، وتهمل شرائعه ، أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه ، وإنها لا تتولاه فردا وتهمله جماعة ، ولا تتولاه فى حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته

« والاسلام يعد الحياة وحدة ، وحدة من ناحية الزمن متماسكة الحلقات ، متدرجة الخطوات ، متضامنة الأجيال ، متعاقبة الأطوار . وحدة من ناحية الفطرة ، متماسكة النوازع والأشواق ، ممتزجة المادة والروح ، قابلة للارتفاع إذا حسن توجيهها وتزكيتها ، مستعدة للهبوط إذا ساء التوجيه والقيادة « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها »

وإذا كان الانسان ينظر إليه ككل ، وإذا كانت الحياة ينظر إليها كوحدة ، وإذا كانت الحياة قابلة

للهبوط إذا ساء التوجيه، ومستعدة للارتفاع إذا حسنت التزكية، إذا كان ذلك كذلك فإن الاسلام يرسم طريقة فذة لتربية هذا الكل الذي هو الانسان، وللارتقاء بهذه الوحدة التي هي الحياة. فسلام الضمير، وسلام البيت، وسلام المجتمع - كل هذه أهداف سعى إليها الاسلام على طريق معبدة وبوسائل عملية مثمرة، حتى يطمئن الفرد فيطمئن البيت، وإذا ما اطمأن البيت أمن المجتمع. وبعد هذا كله تظلل الحياة والأحياء أعلام الأمن والسلام

إن الاسلام يرى أن سلام الأمم والجماعات إنما هو من ذات الفرد الذي يكون الأمم والجماعات، فالفرد هو اللبنة الأولى التي إن صلحت صلح البناء كله، وإن فسدت وكانت واهية ضعيفة انهدم البناء كله من أساسه. الفرد ذو قيمة، لأنه هو الذي يكون الأمم، وهو الذي ينشر المحبة والسلام، وهو الذي يسعى بما شب عليه إلى نظام في الحياة أمثل، ولذلك رعاه الاسلام حق الرعاية، وهداه ووجهه وأرشده، ورسم له الحدود التي يبدأ منها والغايات التي ينتهي إليها. هذا وهو فرد، أما إذا كان في مجتمع صغير — مجتمع الأسرة، فقد وضع له القوانين والنظم، وراعى في ذلك حياة فرد آخر أو أفراد آخرين، ليكونوا أداة عاملة في رقي الحياة. فشرع الرباط المقدس يربط بين الزوجين، وحرم الاختلاط والتبرج؛ وسن الحدود لحماية الأعراض. وأحل الطلاق وهو أبغض حلال إلى الله. وأباح تعدد الزوجات ليمكن مواجهة أحداث الزمن وتوازله. ثم جعل العائلة كلها متكافلة في السراء والضراء؛ في حال القدرة يفيض بعض أفرادها على بعض، وفي حال اليأس يمين القادر المحتاج

وإذا خرج الفرد إلى المجتمع الأكبر لم يتركه الاسلام، بل يسن له من القوانين والمبادئ والنظم ما يكفل لهذا المجتمع حياة صحيحة، وما يدفع به في ثقة وأمن لتحقيق إرادة الله وكلمته، تلك الكلمة التي بها نزلت الشرائع من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فالرسل جميعا في هذه الكلمة سواء: وهم مكلفون دعوة الناس إليها، وهم مكلفون هم ومن معهم الدفاع عنها والتضحية في سبيلها

لم يغفل الإسلام في هذا المجتمع الأكبر الأدب الاجتماعي الانساني. ولم يقصر في بذر بذور الحب والرحمة، وفرصة التعاون والتضامن. وشرع أهدافا عليا يسعى إليها المجتمع السليم. ونظم الحكم، وضمن العدالة القانونية. وضمن الأمن والسلامة. وضمن الحياة المعيشية. وعادل بين الطوائف والأفراد اجتماعيا. وقرر في المال أصولا قيمة تضمن سلامة المجتمع

الله واحد. صدر عنه كون واحد. بكلمة منه واحدة: وهداه بشريعة واحدة. كل هذا ليأمرنا بالوحدة والمحبة والتعاون، وتحقيق كلمة الله التي أرادها على مر الأيام والدهور، من صدق وعطف ورفع ظلم، وإحسان وتعاون وإثمار، ووقوف في وجه الطغيان، ومحاربة الاستغلال الفردي والجماعي، والتزام الجادة، والنأي عن كل ما يحط الإنسان والإنسانية

هذه هي رسالة الله التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد. فلسنا نخرج على أمم الغرب ودوله بجديد حين ندعو إلى هذه الأهداف السامية، لأنها من صميم رسالتهم من قبل أن يحرفوا الكلم عن مواضعه، ومن قبل أن يفصلوا الدين عن الدولة. ومع ذلك فهم يرونها شيئا غريبا منهم، لأنهم مردوا على النفاق والاستغلال والشهوة، ومردوا على مقاطعة رسائل الوحي وخاصمة الأنبياء، إذ في هذه الرسائل حد من طغيانهم وعبثهم ولهوهم واستغلالهم الأمم والشعوب

الإسلام دين سلام لا دين حرب. وهو يقاوم الحروب في كل مظاهرها إلا فيما يتفق ورسالته العالمية؛ فهو لا يرضى الحرب العنصرية، ولا يرضى الحرب الدينية كما يفهمها الأوربيون، ولا يرضى حرب الاستعمار والاستغلال، ولا يرضى حرب الأمجاد الزائفة للملوك والأبطال، ولا حرب المغانم والأسلاب؛ إنما هي حرب واحدة يرضاها، ليقر السلم والعدل في الأرض، وليعم الناس بالهدوء والأمن، وليتسموا أنسام الحرية والتقدير. وهي الحرب التي يعلنها على الظلم في جميع صوره وأشكاله، فلا يهادن قوة ظالمة على وجه الأرض، سواء تمثلت هذه القوة في صورة فرد يتجبر على الأفراد والجماعات، أو في صورة طبقة تستغل الطبقات، أو في صورة دولة تستغل الدول والشعوب. إنها كلها صورة واحدة في عرف الإسلام، صورة

منافية لمبادئه الأساسية ، وعليه أن يجاهدها ما استطاع ، وعليه ألا يهادنها إلا ريثما يتجمع لكفاحها ، ولا يعاونها ولا يقف في صفها بحال من الأحوال « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »

هل الدين الذي يسعى إلى هذه الغاية دين حرب ؟ هل الدين الذي لا يفرض نفسه عقيدة على الناس دين قتال ؟ هل الدين الذي يحرم الإكراه في العقيدة دين عسف ؟ وهل المسلمون الممتثلون لهذه الغايات الشريفة متعصبون ؟ نعم متعصبون ! ونعم هو دين حرب ! في رأي هذه الدول الغربية التي رفضت الخضوع لدينها الصحيح ! وفي رأي بعض « المسلمين » المحسوبين على الاسلام ظلما وعدوانا !

هذا الكتاب الجميل الرائع من صفحته الأولى إلى صفحته الأخيرة لتقرير السلم العالمية في رأي الاسلام . هذه السلم التي تتمثل في دفع الظلم وإقرار العدالة الاجتماعية وحسب . هذه السلم التي تبدأ من ضمير الفرد وتنتهي إلى هذا العالم الأوسع . وقد قدمت حقائق هذا الكتاب مؤيدة كلها بالأسانيد القرآنية والنبوية ومأثورات السلف الصالح

وحين كنت أطالع هذا الكتاب ، كان يقوم بنفسي اعتراض أو رأي أو حاجة ، فما هي إلا بضعة سطور أو بضع صفحات حتى أجد ما أحب وأرجو ، كأنما كنت معه على ميعاد غير منظور

وإن السلام الذي ننشده بهذا الكتاب ، وبدعوتنا الربانية المشرقة ، ليحملنا على التدقيق في كل ما نكتب وما نقول . وإنه قد حاك بنفسي حائك من هذه العبارة « ويسكب الاسلام في النفس السكينة والأمن والسلام ، بالركون إلى الله والاطمئنان إلى جواره ، والثقة في رحمته ورعايته وحمايته . وهي خاصية العقيدة الدينية التي يشارك الاسلام فيها سائر العقائد السماوية .. وإنما يتميز الاسلام بأن العلاقة فيه مباشرة بين الرب والعبد ، لا يدخل فيها كاهن ولا قسيس ، ولا تتعلق بإرادة مخلوق في الأرض ولا في السماء »

وأنا أحسب أن العلاقة المباشرة بين الرب والعبد ليست مقصورة على الاسلام ، إنما هي في الديانات السماوية كلها ، من آدم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد بن عبد الله ، ولكن الوصول في هذه العلاقة حدث على أيدي المحترفين بالدين من الكهان والقسس الذين بدلوا في كلام الله ، ولا شك عندي أن الأستاذ المؤلف يقصد بعض الديانات التي زورها أهلها وانحرفوا بها عن سماتها الإلهية المرسومة

ويقول الأستاذ المؤلف « حتى الجريمة لا يجوز إثباتها بتسور البيوت والتجسس على الناس في مآمنهم . وقد حدث أن مر عمر بن الخطاب في إحدى جولاته الليلية ببيت سمع فيه صوت رجل وامرأة لعله رابه ، فتسور الحائط لينظر ، فإذا رجل وامرأة ومعهما زق خمر . فقال عمر : ياعدو الله ! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصيته ! فقال الرجل : ياأمير المؤمنين : أنا عصيت الله في واحدة وأنت في ثلاث . فالله يقول « ولا تجسسوا » وأنت تجسست علينا . والله يقول « وأتوا البيوت من أبوابها » وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه . والله يقول « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وأنت لم تفعل

وهكذا لم يجد عمر أنه يملك عقابه ، فاستتابه ! »

وأحسب أن الاسلام يبيح التجسس فيما هو من صالح الرعية والقيام على حياطة القوانين . وعمر رضي الله عنه ما خرج إلا متجسساً مستطلعاً . ويبدو لي أن هذه القصة وضعت وحملت على عمر . وإلا فإنها لكبيرة من هذا الفاروق الوقح أن يجابه عمر هذه المجابهة : رجل معه امرأة ، ومعه زق خمر ، وصوت الرجل والمرأة يدعو من يسمعه عرضا إلى الاستراحة به ، فإذا ما استشرف أمير المؤمنين لينظر ما رابه يناظره هذا الفاروق الوقح في أصول الدين ! إن عمر لم يعاقبه لو كانت القصة حقيقية ، لا لأنه تجسس ، ولا لأنه أتى البيت من غير بابه ، ولا لأنه لم يستأنس ولم يسلم ، ولا لأن حجة هذا الفاروق فلجت حجة عمر ، بل لأن شروط العقاب لم تتوفر ، فلم يبق إلا التعزير وهذا ما فعله عمر

إن الكتاب كتاب إسلامي قرآني . وإني أراه يمتاز بمميزات ثلاثة : الأولى وحدة موضوعة . الثانية أنه سد في نفوسنا حاجة ماسة في هذه الفترة من الزمن . الثالثة بيانه المشرق وتعبيره الرائق

محمود عبد العزيز محرم